

السريالية والجنون

بقلم فرانسيس سوان

الوجهة ، وهو لن يكون بحال من الاحوال فخفخة للروح ، ولكنه احدى فعالياتها الاكثر كسفا ، وهكذا تفتح السريالية ابوابا واسعة امام معرفة الانسان كانت قبل ذلك مغلقة تماما ..

والسريالية بكل وسائلها لا تعدو ان تكون جنونا مؤقنا يفجر طاقات اللاوعي خارج قشرة العقل الواعي الهشه ، ويرى فرويد ان اولئك المتوهين يعرفون عن الحقيقة الداخلية اكثر مما نعرف ، ويستطيعون ان يكشفوا لنا بعض اشياء لا يمكن النفاذ اليها بدونهم ، انهم غير متلائمين مع الحياة اليومية ولكن عالمهم اكيد بنظرهم كعالمنا ، ودرس هديانهم يوسع حقل المعرفة بشكل محسوس ويبعدنا عن الواقع العملي .

وكلما اقتربت لحظة الالهام السريالي من حالة الجنون حالة تفكك الواقع بكل ترابطاته المألوفة ، كانت اكثر انتاجا واكثر اخصابا ، لان حالة الجنون هي الحالة الوحيدة التي يكون بالامكان معها النظر الى العالم دون مساعدة العقل الواعي . وقد ساعدت بعض الامراض النفسية الى حد بعيد في انتاج آثار سريالية رائعة . فالفنان المعروف ستفادور دالي كان مصابا بمرض البارانويا النفسي ، وهو مرض يمتاز صاحبه بالكبرياء الشديدة والانانية وسرعة الانفعال والحذر وهو ينسب الى الاحداث والظواهر ما ليس له وجود في الواقع الا في خياله وذاته .

وهكذا فالسريالي يعيش بطريقتين واعية ولا واعية ، فهم يعيشون لحظات جنونهم الخاص مع قدرتهم على الاحتفاظ باتصالهم مع العالم الخارجي ، فهم يملكون دائما ذلك النوع من البهلوانية العقلية التي تبيح لهم التظاهر بالجنون حين يكونون قادرين على العودة الى الحالة العادية . على ان تلك البهلوانية كانت خطرا كبيرا على بعض السرياليين فغطسوا في بحار اللاواعية دون ان يستطيعوا العودة فاصابهم الجنون المطبق .

وتخطي عتبة الوعي الى اللاوعي والى عالم الاحلام والجنون المؤقت ، يوجب الانعزال عن اغراءات العالم الخارجي والفوضى في اعماق الذات الذاهلة عن المادة الخارجية بشكائها الكلاسي العادي .

وهكذا تستطيع الوصول الى ابعاد مكتسبات المدنية والى ابعاد نظرة الانسان للاشياء وتلك النظرة التي تكونت بممارسة النظر اليها الاف السنين ، حتى يستطيع استعادة قوته النفسية كلها ويصبح حرا بشكل حقيقي ، وكما يقول احد السرياليين (ان النزهة في هذه المنطقة الحرام تنتهي الى عالم فيه الكثير من الاغراء ، حتى ان المغامر فيه لا يفكر

صور مفزعة واوهام مخيفة ، واحلام تعب لمخيلات مريضة ... ادرع مقطوعه ، وسيقان ركبت فوقها رؤوس بشرية ، وعيون مقطوعة بشفرات حلاقة ..

كل شيء يصدك في اللوحة السريالية . تشعمر بلاه منطقيه والانفصال التام بين الاثر وعقلك ولكنه لا يلبث ان يتسرب الى ذاتك دون ان تحس ، ليستقر هناك ويبعث باحاسيسك ما شاء له العيب ، بعيدا عن الرقيب القاسي واعني به العقل الواعي . فالآثر السريالي يقفز فوق عتبة العقل ضاحكا ساخرا ، فاتحا آفاقا مخيفه من حالات اللاشعور ..

والسؤال الهام الذي يثيره كل من يفاجأ لأول مرة بمقابلة السريالية : هل هي فن حقيقي ام أنها مجرد مزحة ثقيلة ، انتشرت حتى صدقها القائلون عليها ؟ ؟

تسمى السريالية الى عدم الاكتفاء بالرؤية اليومية المعتادة للعالم والحياة ، والى اكتشاف آفاق جديدة لا سيطرة للعقل عليها ، فهي تهزأ بجميع المصطلحات وتحاول التحرر من الواقع الى اقصى درجة ممكنة بقطع العلاقات المألوفة للاشياء ، وافساح المجال امام الخيلة الغنية بالصور والاهام ، للاقترب اكثر فاكث من عالم المدهشات ، فهم يتحررون من العالم الواقعي لينفذوا الى عالم الرؤى والاشباح ، لان الاقتراب من الخيال فقط في تلك النقطة التي يفقد فيها العقل الانساني مراقبته ، يكون له كل الحظ في اظهار التأثير الاكثر عمقا للكائن . ففي كل مكان تبرز فيه الخيلة بحرية دون رادع من الروح النافذة تظهر السريالية ..

وليس البعد عن الواقع هدفا بحد ذاته ، بل هو وسيلة لادراك الواقع بعمق اكثر والوصول الى جواهر الاشياء ، فقد انعتقت السريالية من تلك الاشجار العظيمة والبيوت والبراكين والامبراطوريات ، ان سر السريالية يكمن في الاقتناع بأن شيئا ما مخبأ وراء هذه الاشياء .

وتعتمد السريالية في كل ذلك على نظريات فرويد في التحليل النفسي التي عمقت مفهوم اللاشعور والحياة اللاواعية ، ومن هنا جاء اعتمادهم ايضا على الحلم ، اذ يرى فرويد ان عالم الاحلام هو رمز الرغبات اللاواعية والبول غير المصرح بها ، والانسان حين يحل رموزها سوف يصل الى وعي تام لنفسه .

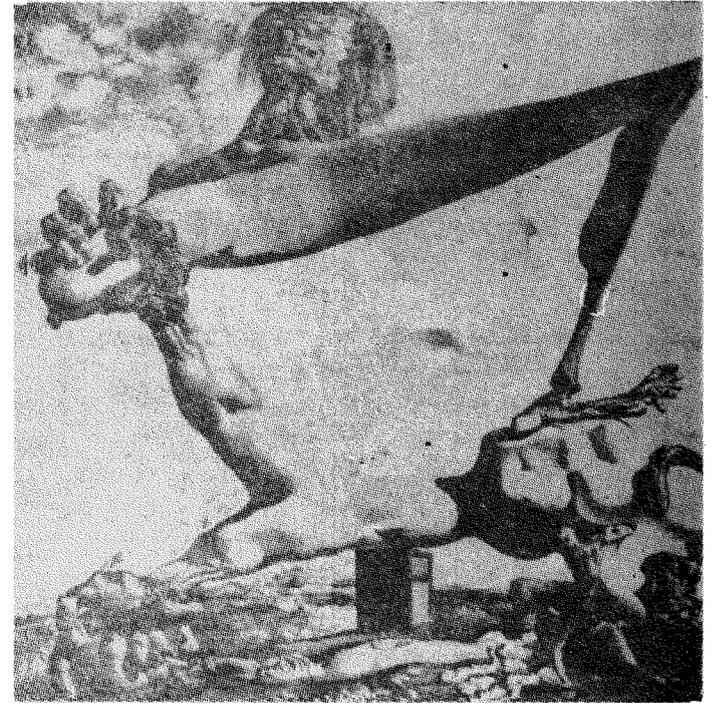
وهكذا فقد ثبت للسرياليين ان حياة الحلم لها من الاهمية لا حياة اليقظة ان لم تكن اكثر اهمية ، فباشروا الاهتمام بها وتطبيقها في حل القضايا الاساسية للحياة ، اذ ان الحلم وسيلة للمعرفة كالتفكير ويجب تحليله من هذه

الابمعاودة النزهة) . فالسريالية بمؤثراتها الفامضسة ومعمها الخاصة هي شيء جديد يكشف عن جنة تشبه تلك التي تحصل عايها عند تعاطي حشيشة الكيف ، وتبسدو الحياة بكاملها لتلجئ الى نوع من النشوة التي ترج العقل وتفتح باب المجهول .

وقد قلب السرياليون مفاهيم النقد الفني رأسا على عقب بابطالهم مفهوم النبوغ وتأكيدهم ان التصوير السريالي هو في متناول الاشخاص العاديين الذين يجرؤون على الخوض في تلك المناطق الملاء بالمستنقعات من اللاوعي . ولما كان دور الشاعر السريالي هو ان يكتب ما يملي عليه ذلك الذي يفكر في داخله ، فان دور الرسام هو ان يحصر ويتوخى ما يرى في داخله .

وكانت النزعة التكميبية عند الرسامين السرياليين بمثابة الهام بمعنى انها فككت تضامن الوسائل المادية وتحررت من الضرورات العملية ، على ان النزعة السريالية تفرعت بكاملها من حركة ظهرت قبلها وهي الحركة الدادائية Dadaism التي انطلقت مسعورة بعد الحرب الاولى

بتأثير الدمار والخراب والجمالة الاجتماعية السيئة ، فأخذت على عاتقها خلق فن ينقض الفن ، ويرفض كل القيم المعاصرة والمعتقدات الخلقية السائدة ، ان العالم الذي يستعر بنار الحرب ليس له معنى ، وعلى ذلك فان الفن نفسه الذي يعيش في مثل هذه الظروف يجب ان لا يكون له معنى ، تنظر الى اللوحة لتجد اصنافا مختلفة من خرق بالية وشظايا اخشاب وازرار مهشمة وقنائل من الخيط وتذاكر ترام ممزقة ونحو ذلك من صنوف النفايات ، فهم يلحون وما على كل ما هو غريب وشاذ ، ويحاولون ان يدوسوا تلك الحتميات التقليدية لاي امر مهما كانت ، ان كل سلم للقيم يلقي وكل تمييز بين ما يجب وبين ما لا يجب عمله ، وما لا يجب قوله . . . وبيانات الداديين المدوية وشتائمهم



الحرب الالهية - دالي

للمجتمع واحتقارهم للاصطلاحات ، تشير الى ارادتهم في تخطي المداجة التي تبقي الانسان في حالة العبودية .

وقد ظهرت هذه التسمية « الدادية » اول ما ظهرت على يد فريستان تزارا ، في احد مقاهي زوريخ في عام ١٩١٦ ، ولقيت ترحيبا كبيرا بين جماعته لانعدام المعنى لمقطعي الكلمة المذكورة . الا ان بعض الداديين شعروا اخيرا بعث ما يقومون به وارادوا تخطي حركتهم للوصول الى تجاوزات سليمة ، فان تلك الروح التشاؤمية يجب الا تساهم فقط في تخريب نظام باطل بل في خلق انسانية جديدة وعالم جديد ، فتوصل هؤلاء الى ما سمي فيما بعد بالسريالية حسب تعبير الشاعر ابولينير . وانتهت الدادية تماما في عام ١٩٢١ .

ومن هؤلاء السرياليين الاوائل « اندريه بريتون » الذي يعتبر بحق زعيما لهذه المدرسة العصرية ، اذ نصب نفسه حاميا وراعيا للشعراء والفنانين السرياليين ، يحيط به لويس آراغون ، وبول اليوار ، وفيليب سوبول ، ويير ماسو وغيرهم . . .

وهن مشاهير الرسامين السرياليين المعاصرين : جيورجيو دي كريكو اليوناني الذي عدت لوحاته اولى امثلة الفن السريالي الحق ، ومن اكبرها شانا ، فهي على رأي بعضهم تعتبر بمثابة المدخل الى السريالية .

ومن مشاهير السرياليين ايضا « جون ميرو » و « سلفادور دالي » الذي يعد اشهر السرياليين واذيعهم صيتا ببراعته الفنية، فهو فنان مبدع قدير، رحب التخيلات واسع الافق . وقد رأينا فيما سبق انه كان مصابا بالبارانويا ، فابتدع نظرية جديدة اسمها « البارانويا النقدية » حيث اتخذ مرضه اساسا لاسلوب حكم عجيب في التعبير الفني بعد ان اضاف اليه جرعة من النقد والفكاهة . فليس صدر المرأة الا مكانا بالاستطاعة فتحه وغلقة كالادراج الفارغة . . . اما الساعات المعدنية الموجودة في لوحاته فهي اقراص من العجين تتدلى من الجدران ، ولا شك ان اجمل مكان للنوم هو عند مشارف الصحراء . . . اما اشهى طعام يقدم فهو بلا شك رؤوس القديسين المسلوخة موضوعة في صحاف لماعة . . . ولا حرج في احدي لوحاته من ان تطول ذراع الرجل حتى تقبض على السحابة العالية المستديرة التي هي ثدي امرأة . . .

ويأتي بعد دالي الرسام الالماني (ماكس ارنست) الذي كان يعتمد في اسلوبه على تقابل صورتين لا تربط بينهما في الاصل اية رابطة يدركها العقل ، ولكن على نحو رضي الخيال ، فتنبعث من هذا التقابل شرارة تهز النفس لانها تردد دون ريب معنى خفيا في باطنها .

ويأتي بعد ذلك « ايف تانفي » الفرنسي ، ورونيه ماغربت الباجيكي ومارسيل دوشان ، وبيكاسو ، وغيرهم . . .

اما بيكاسو فقد اعتبر في عام ١٩٢٥ اعظم سريالي ، الا ان بيكاسو الشديد الولوج باللعب والتغيير والتنويع لا يستطيع الثبات بحال على اسلوب واحد ، فهو دائما بيكاسو الشاب الجديد المتغير .

كل هؤلاء اتخذوا فرويد خالق التحليل النفساني

آلها لهم يتعبدونه - وكيف لا ، وهو الذي عرى الانسان بشكل مخيف ووضعه امام نفسه بانحطاطه ومخازيه، ورفع الاقنعة عن صورته المزيفة ، واصبحت الرغبة عنده هي المحرك الكبير الخفي للانسان ؟ وهكذا فقد ارضى التحليل النفسي بتعريفه هذا الميدان المجهول ميل السريالية الايجابي وسميها في جمع اللاعقلاني الى العقلاني . فالوعي ليس الا المظهر السطحي لحياة تجري في الاعماق . وفرويد هو الذي سار شوطا بعيدا بهذا الاكتشاف لحياة الكائن الداخلي وكشف عالم الغرائز المكتوبة حيث هناك في اعماق الذات تتجاوز الاضداد والتناقضات دون حدود ، فاذا الفينا العقل قدفت هذه المتناقضات الى العالم الخارجي كما هي مثيرة الدهشة والعجب والتساؤل .

وهكذا يسمى الفنانون ، الى الهبوط داخل نفوسهم ، ليتصلوا بتلك الحياة الثانية ، فيبدؤون بالموت في الدنيا ، انهم سيستسلمون الى الالهام وينزلقون الى ظلمات سيبرهم نور الوحي فيما وراءها .

ولكن هذا الغوص ليس هدفا في ذاته بل هو كما رأينا سابقا وسيلة لرؤية جديدة للواقع ، واستشفاف معالم كون آخر فوق الواقع سيفنى فيه الداخلي والخارجي والذاتي والموضوعي .

وعلى ذلك فالسريالية تعارض كل نوع من انواع الذاتية ، اذ ان (الانا) ليست الا مكانا بسيطا للمرور . لذلك نحن نراها باستمرار على ملتقى العالمين الخارجي

والداخلي ، كأنها بين المطرقة والسندان . .

على ان ارتياد تلك الخفايا المظلمة من النفس الانسانية ليس بالشيء السهل ، الا انه من الصعب جدا التخلص من مفريات العالم الخارجي لينطوي الانسان على نفسه ، فالوحدة مؤلمة ، الناس يسمون للتشبه بالآخرين قدر الامكان، ويتركون انفسهم يستأثرون بفعاليات عديدة تجرهم خارج نفوسهم .

كما ان الحياة الداخلية ترتدي بالحقيقة صفة القداسة نفسها التي كانت ترتديها ظاهرات العالم الخارجي - وهناك قلق مماثل يمسك بالجريء الذي يريد كشف اسرارها ، كذلك الحكيم القديم الذي تجرأ في السابق ان يثبت ان الكواكب ليست آلهة .

ومن هنا ينبع تقديرنا لاولئك الشجعان الذين تجرأوا على تخطي حدود المنطق والمعقول فأعطونا آثارا رائعة في الشعر والرسم والرواية ، وحتى في المسرح والسينما ، ونحن اذ نرى السريالية كحركة قد بدأت بالضعف والتخاذل، فليس ذلك لانها كانت عبثا لا طائل تحته او مزحة ثقيلة انتشرت حتى صدقها القائلون عليها ، بل لانها فن حقيقي قد ادى او لم يؤد دوره الكامل ولكن الفترة الزمنية المحددة له في التطور التاريخي للانسان قد انتهت وعلمه ان يتنحى لقادم مجهول جديد .

فراس سواح

جامعة دمشق

في الاسواق :

أنا وسارترو والحياة ...

بقلم الكاتبة الوجودية الشهيرة

سيمون دو بوفوار

ترجمة غاينة مطرجي ادريس

في هذا الكتاب الرائع تروي لنا الكاتبة الوجودية الكبيرة سيمون دو بوفوار قصتها مع الرجل الذي كان شريك حياتها ، من غير ان يكون زوجها ، جان بول سارتر . وهي من خلال ذلك تقص تلك المفارقة التي أدت الى انتصارها : كيف أصبحت كاتبة الى جانبه ، وكيف كانا وما يزالان يواجهان الحياة . انها قصة عجيبة ، هذه التي تسردها هنا سيمون دو بوفوار لانها قصة عاطفة فذة قلما ربطت كائنين فوق هذه الارض يمثل هذا الرباط : رباط الحب الواعي الذي يوثقه تفاهم روحي وفكري ليس له في عمقه وصميميته مثل . فبالرغم من ان سارتر يحبها ، كائنات اخرى ، من مثل « كميل » و« اولغا » فان ما يشده الى سيمون دو بوفوار اعماق من ان تؤثر فيه اية علاقة خارجية وان ما يشدها اليه اوثق من ان توهمه الفيرة . . صحيح انها تغار ، وتعب عن ذلك في صفحات رائعة، ولكن السعادة التي خلقها لقاؤها بسارتر منذ اللحظة الاولى ستظل ترفرف على حياتها مادامت على قيد الحياة . وهي واثقة كل الثقة من انها « لن يأتيها اية مصيبة من سارتر الا اذا مات قبلها . . » قصة رائعة ، عميقة ، مرهفة ، نابضة بالحياة . .

منشورات دار الاداب

الشمس ٤ ليرات لبنانية او ما يعادلها